الحركة العلمية في مدينة إربل في عهد مظفر الدين كوكبوري في كتاب تاريخ إربل لابن المستوفي (ت٦٣٧هـ/١٢٤٠م)

The Scientific Movement in the City of Irbil during the Reign of Muzaffar Al-Din Kokburi in the Book Tarikh Irbil by Ibn Al-Mustawfi (D. 637 AH/1240 CE)

إعداد

أ.م.د نعيمة حسن فليح

Asst. Prof. Naima Hassan Falih, PhD

استلام البحث: ٢٠٢٥/٥/٥م

نشر البحث: ٢٠٢٥/٦/٣٠م

١٤٤٧هـ ٢٠٢٥م

الملخص

كانت الحركة العلمية في عهد مظفر الدين كوكبوري الذي حكم إربل من سنة(٥٨٦هـ/١١٩٠م) حتى وفاته سنة(٦٣٠هـ/١٢٣٣م) مزدهرة ومتميزة، إذ شهدت مدينة إربل نهضة علمية وثقافية كبيرة، نتيجة لاهتمام كوكبوري بالعلماء والمؤسسات التعليمية، فقد كان معروفا بتقواه وتقديره للعلماء فاستقدم كثيرا من العلماء والفقهاء إلى إربل، مما جعلها منارة للعلم في العصر الوسيط.

الكلمات المفتاحية: الحركة العلمية، إربل، مظفر الدين كوكبوري

Abstract

The scientific movement during the reign of Muzaffar al-Din Gökböri, who ruled Erbil from the year 586 AH / 1190 AD until his death in 630 AH / 1233 AD, was prosperous and distinguished. The city of Erbil witnessed a great scientific and cultural renaissance as a result of Gokbori's interest in scholars and educational institutions. He was known for his piety and appreciation of scholars, and he invited many scholars and jurists to Erbil, making it a beacon of knowledge in the medieval era.

Keywords: scholarly movement, Erbil, Muzaffar al-Din Gokbori

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد(ﷺ) وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد...

يُعد كتاب تاريخ إربل لمؤلفه ابن المستوفي(ت٦٣٧ هـ / ١٢٣٩م)، والمسمى (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل)، من أهم وأقدم المصادر التاريخية التي ذكرت تاريخ مدينة أربيل والمنطقة المجاورة لها في العصر الإسلامي، ويظل شاهدًا حيًا على أهمية مدينة أربيل كواحدة من أبرز المراكز الحضارية في العالم الإسلامي. فهو مصدر فريد للتاريخ المحلي لأربيل، فقد قدّم تفاصيل لا تتوافر في مصادر أخرى، يتميز الكتاب بمحتواه المتنوع الذي يتناول الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية المواكبة لعصر المؤلف، مما يجعله مرجعًا قيمًا للباحثين في مجال التاريخ، والدراسات الثقافية. كتب ابن المستوفي "تاريخ أربيل" في مدة إزدهار المدينة تحت حكم الأسرة الأتابكية، عندما كانت أربيل مركزًا سياسيا وثقافيا بارزا.

موضوع البحث يركز على دراسة الجانب الثقافي والعلمي في مدينة أربيل عن طريق كتاب(تاريخ إربل)، إذ يوافر الكتاب مادة غنية لتحليل التفاعل الثقافي والاجتماعي في مدينة أربيل في عصر أميرها مظفر الدين كوكبوري(٥٨٦-٦٣٠هـ/١١٩٠-١٢٣٣م)، إذ شهد عهده حركة ثقافية، لا يمكن أن نقول إنها كانت حركة واسعة، ولكنها سرت إلى مسامع جيرانه من البلاد المجاورة فأثارت إعجابهم، فضلا عن سيرة مظفر الدين نفسه ومحبته لأهل العلم، فقد "كان مددا للعلماء والفقراء وطلبة الحديث وغيرهم"، يُعد الكتاب مرجعًا غنيًا بتراجم الشخصيات التي ساهمت في تشكيل الحياة الثقافية والعلمية في أربيل.

قسم البحث إلى عدة فقرات تتضمن:

أولا: سيرة ابن المستوفي.

ثانيا: كتاب تاريخ إربل.

ثالثا: الحركة العلمية في مدينة إربل في عهد السلطان مظفر الدين كوكبوري

ثم خاتمة أوضحت فيها أبرز نتائج الدراسة، ثم أتبعتها بثبت لمصادر ومراجع الدراسة. ومن الله التوفيق.

أولا: سيرة ابن المستوفي

هو "أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي، الملقب شرف الدين، المعروف بابن المستوفي الإربلي"(١)، ولد بإربل سنة(٥٦٤هـ/١١٦٩م)، نشأ في أسرة تتألف أكثر أفرادها من أهل الفضل والأدب، وقد وصف بأنه" وزير إربل وفاضلها ومؤرخها"(٢)، و"كان رئيسا جليل القدر كثير التواضع واسع الكرم، لم يصل إلى إربل أحد من الفضلاء إلا وبادر إلى زيارته وحمل إليه ما يليق بحاله، ويقرب إلى قلبه بكل طريق، وخصوصا أرباب الأدب فقد كانت سوقهم لديه نافقة"(٣). ومن صفاته وفضائله إنه كان محافظا على عمل الخير والبر ومواظبا على العبادة كثير الصلاة والصوم، ودائم الذكر، ومتتابع الصدقات، واشتهر بتواضعه وكرمه وكان بيته مجمع الفضلاء وخصوصا أصحاب الأدب ممن ترد إلى إربل(٤).

مدحه ابن الشعار بقوله:"وقرأ القرآن والأدب على جمع عظيم من العلماء وخلق كثير من القادمين إلى إربل(٥). وسمع الكثير من الأحاديث النبوية، وقرأ العلوم الأدبية، وجالس العلماء، وحاضر الفهماء،

---

(١) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد(ت ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،١٩٧١، ج٤، ص١٤٧.

(٢) ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد(ت ١٠٨٩ هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ١٩٨٦، ج٧، ص٣٢٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص١٤٨.

(٤) ابن الشعار، أبو البركات المبارك بن الشعار(ت ٦٥٤ هـ): قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المشهور بـ «عقود الجمان في شعراء هذا الزمان»، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٥، ج٥، ص٣٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٢٧.

(٥) الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد(ت ٧٤٨هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري،ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣، ج٤٦، ص٣٥١.

وأفضل عليهم، وأحسن إليهم، وأحرز علوم الآداب وأفانينها، وأحكم أصول الفضائل وأتقن قوانينها، وصار أوحد زمانه، مبرزًا على نظرائه وأقرانه"(١).

وقد أشاد المؤرخون بمهارة ابن المستوفي في علوم كثيرة فإنه كان"جم الفضائل عارفا بعدة فنون، منها الحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلق به، كان إماما فيه. وكان ماهرا في فنون الأدب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم البيان وأشعار العرب وأخبارها وأيامها ووقائعها وأمثالها. وكان بارعا في علم الديوان وحسابه وضبط قوانينه على الأوضاع المعتبرة عندهم"(٢).

وعلى الرغم من اشتهار ابن المستوفي كمؤرخ إلا أن له مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم والفنون فقد جمع لإربل تاريخا في أربع مجلدات، وكتاب (إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصل) في مجلدين تكلم فيه على الأبيات التي استشهد بها الزمخشري في المفصل، وله كتاب (النظام) في شرح ديواني شعر المتنبي وأبي تمام في عشر مجلدات، وله كتاب (سر الصنعة) وأيضا كتاب (أبا قماش) جمع فيه أدبا كثيرا ونوادر وغيرها(٣). وديوان شعر منه في تفضيل البياض على السّمرة(٤).

إن ما تميز به ابن المستوفي من ثقافة واسعة أهلته الى أن يتولى في حكم السلطان مظفر الدين كوكبوري(٥)(٥٨٦-٦٣٠هـ/١١٩٠-١٢٣٣م) وظائف عدة منها الاستيفاء(٦)أي النظر في الديوان بإربل،

---

(١) ابن الشعار: قلائد الجمان، ج٥، ص٣٦.

(٢) ابن الشعار: قلائد الجمان، ج٥، ص٣٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص١٤٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٢٧.

(٣) وفيات الأعيان، ج٤، ص١٤٧.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٢٧.

(٥) مظفر الدين أبو سعيد كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين بن محمد، حاكم أربيل في عهد صلاح الدين الأيوبي، ينظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٣،مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ج٢٢، ص٣٣٦.

(٦) يأتي منصب الاستيفاء بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد الوزارة، ويعد مستوفى عام السلطنة صاحب أول وأكبر مقام بعد الوزير، لأنه المسؤول عن الشؤون المالية وضبط أموال الولاية، ولأن مصالح الجند والرعية وقواعد الملك وأموال المملكة تحت مسئوليته. كما كان على المستوفي ضبط الأموال التي تتعلق بالجيش، وضبط أموال المملكة والعمل على حفظها وعليه تعيين نوابه في كل ولاية ومحاسبتهم إذا أخطأوا. ولأهمية منصب المستوفي كانت هناك رسوم لتعيينه، فيها من مظاهر العز والشرف، منها أن اختياره يتم عن طريق السلطان أو وزيره، وكان السلطان يصدر مرسوما بذلك،

بإربل، فقد" كان بارعا في علم الديوان وحسابه وقوانينه"[١]، فقد بقي في إربل متصديا لديوان الاستيفاء، الذي كان مهما آنذاك لذا لقب بابن المستوفي، ثم فوض إليه منصب الوزارة سنة(٦٢٩هـ / ١٢٣١م) وشكرت سيرته فيها[٢]، "فأستبشر الناس يمن طلعته، وقضيت حوائجهم وأشغالهم، وحسنت أحوالهم في الديوان"، وظل وزيرا لكوكبوري الى أن توفى الأخير سنة(٦٣٠هـ /١٢٣٢م) [٣].

وعندما تولى الأمير أبو الفضل باتكين بن عبد الله المستنصري[٤]، حكم امارة أربل عرض على ابن المستوفي الوزارة، وأن يكون نائبه في الأشغال الديوانية مع منحه صلاحيات واسعة في الأمر والنهي وتخصيص مبلغ من العطاء يصل إليه في رأس كل شهر، امتنع عن قبولها وأحتج بانه شيخ كبير لا يقدر على العمل مفضلا الاستقالة، فأعفاه عن الولاية لكن كان يستدعيه إلى مجلسه يجالسه ويحاضره ، ويسأله عن أشياء من العلم، ثم لزم ابن المستوفي داره وانشغل باقتناء الكتب النفيسة، والناس يلازمون خدمته[٥].

وعندما هاجم المغول مدينة إربل سنة(٦٣٤هـ/١٢٣٧م)، كان ابن المستوفي في جملة من اعتصم بالقلعة وسلم منهم، ولما انتزح التتر عن القلعة انتقل إلى الموصل التي كانت تحت حكم بدر الدين لؤلؤ[٦]

ويخلع عليه الخلعة الشريفة ويجلس له مجلس عام. وكذلك إلزام عمال الوزارة بتوقيره واحترامه، ومراعاة قدرته واحتشامه وعليهم أن يدركوا أن منزلته أرفع المنازل وأن يرفعوا إليه في كل شأن يتعلق بديوان الاستيفاء وأن يوقروا مرسومه ورسومه بأمر من السلطان نفسه؛ لأنه هو الذي يقرر المعاملات ويحرر الحسابات ويثبت البراءات للسلطان ينظر: عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، مكتبة المهتدين، الكويت، ١٩٨٤، ص٤٩.

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٦، ص٣٥٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص١٤٧.

(٣) ابن الشعار: قلائد الجمان، ج٥، ص٣٩.

(٤) هو الأمير أبو الفضل الخليفتي الناصري كان مملوكا لعائشة بنت الخليفة المستجد بالله (أم الناصر)، قدم بغداد صبيا (٥٧٤هـ / ١١٧٨م)، وتأدب وأحب الفضيلة وأقطع له البصرة وقام بأعمال جليلة حيث بنى فيها المدارس وجدد جامعها وبنى البيمارستان والرباط وسور البصرة، ثم تولى سلطنة اربل للخليفة المستنصر بالله وعدل في اهلها، ولما استولى المغول على اربل قدم بغداد ولزم بيته الى ان مات سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م). ينظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت ٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ٢٠٠٠، ج١٠، ص٤١.

(٥) ابن الشعار: قلائد الجمان، ج٥، ص٣٧.

(٦) هو صاحب الموصل الملقب بالملك الرحيم كان ارمنيا اشتراه رجل خياط ثم صار مملوكا لنور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنقر الأتابكي صاحب الموصل، فحضي عنده وعلا شأنه وتقدم في دولته، ثم

الذي أرسل جمالا لحمل متاع ابن المستوفي، فدخل الموصل؛ فاستقبله الأمير بالإكرام الوافر، والتبجيل والحرمة التامة، وأنزله في دار هيئت له برسمه، ونزل بها ورتبّ له جاريًا، ومال إليه بكليته، ولم يكن يصبر عنه[١]، ولم يزل على ذلك حتى توفي بالموصل يوم الأحد من الشهر المحرم سنة(٦٣٧هـ/١٢٤٠م)، ودفن بالمقبرة السابلة خارج باب الجصاصة[٢]. ولما توفى ابن المستوفي رثاه أحد الشعراء المعروف بشيطان الشام قائلا:

أبا البركات لو درت المنايا ... بأنك فرد عصرك لم تصبكا

كفى الإسلام رزأ فقدُ شخص ... عليه بأعين الثقلين يبكى[٣]

ثانيا: كتاب تاريخ إربل

يعد كتاب تاريخ إربل من التواريخ المحلية المخصصة لمدينة إربل، وقد ورد اسم الكتاب على النسخة المحققة من قبل سامي بن السيد خماس الصقار باسم (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل)، بينما سماه المؤرخ ابن الشعار(نباهة البلد الكامل ومن ورد عليه من الأماثل)[٤]، وكان الكتاب في عداد الكتب المفقودة، ويذكر المحقق:"أن الفضل في اكتشاف مخطوطة تاريخ إربل يعود إلى المستشرق البريطاني اربري الذي أرشد سامي الصقار إلى وجود مخطوطة في مكتبة جيستر بيتي في دبلن ليكون مشروعا للدراسة والتحقيق"، وقد أثمر جهوده حيث قدم كتاب تاريخ أربل في مجلدين ووضع له الحواشي والتعليقات، وقام بترقيم التراجم ثم الاستزادة في المعلومات عن كل شخصية واردة ذكرها بمراجعة الكتب ذات الصلة، فضلا عن تعريف والقبائل والأقوام والأماكن، مع عمل الفهارس، كما نال المحقق سامي

قتل أولاد أستاذه غيلة واحد تلو الاخر و أزال الدولة الأتابكية عن الموصل، وأنفرد بالحكم واتصف بالدهاء والسكر وحكم لمدة خمسين سنة،وكان شابا حسن الشباب، من نضارة وجهه، وحسن شكله، وكانت العامة تلقبه بقضيب الذهب، وكان ذا همة عالية، وداهية شديد المكر، بعيد الغور. وتوفي سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير(ت٧٧٤ه): البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن، دار هجر،١٤٢٠ هـ،ج١٧، ص٣٨٤.

(١) ابن الشعار: قلائد الجمان، ج٥، ص٣٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص١٥١؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٢٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص١٥٢.

(٤) ينظر: ج٥، ص٣٨.

الصقار شهادة الدكتوراه من جامعة كمبرج سنة(١٩٧٤) بعد تقديم أطروحته المعنونة" امارة أربل في العصر العباسي ومؤرخها ابن المستوفي "[١].

والكتاب يتضمن مجموعة من التراجم لشخصيات بارزة من الصالحين والأخيار والعلماء والشعراء والكتاب التي وردت أربل، ولجماعة من الأرابلة النابهين وقد بلغ عدد التراجم الواردة في الكتاب(٣٣٤) ترجمة وعلى الرغم من أن الكتاب صنف ضمن كتب التراجم لكن يحمل في محتواه معلومات ذات أهمية عن التاريخ الحضاري لمدينة أربل في حكم السلطان مظفر الدين كوكبوري(٥٨٦- ٦٣٠هـ/ ١١٩٠-١٢٣٣م) منها معلومات عن الأنظمة الإدارية والسياسية مثل الوزارة، والحجابة والدواوين وغيرها.

ثالثا: الحركة العلمية في عهد السلطان مظفر الدين كوكبوري

في مدينة إربل كان مولد السلطان مظفر الدين كُوكُبُوري في(٢٧ من المحرم ٥٤٩هـ/١١٥٥م)، وقد اشتهر بلقب كُوكُبُوري وتعني الذئب الأزرق، وذلك تقديرًا لشجاعته وإقدامه إذ كان" موصوفا بالقوة المفرطة"[٢]، نشأ مظفر الدين في كنف والده زين الدين علي حاكم إربل، وعهد به إلى من يقوم على تربيته وتعليمه وتثقيفه، وعند وفاة والده سنة(٥٦٣هـ/ ١١٦٧م)، كان مظفر الدين في الرابعة عشرة من عمره، فخلف أباه في حكم إربل[٣]، لكنه كان قاصرًا عن مباشرة شئون الإدارة والحكم، فقام نائب الإمارة مجاهد الدين قايماز(ت٥٩٥هـ/١١٩٩م) بتدبير شئوون الدولة[٤].

وبعد سطوع نجم صلاح الدين الأيوبي دخل مظفر الدين في طاعته وحكمه، وأصبح من العاملين معه إذ أعجب به وبشجاعته، وثباته معه في ميادين القتال ضد الصليبيين، وتحول الإعجاب إلى توثيق العلاقة

---

(١) ينظر : مقدمة المحقق ص٧.

(٢) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل(ت ٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ج٣، ص١٥٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٨٣.

(٣) ابن واصل، محمَّد بن سالم(ت ٦٩٧ هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع و سعيد عبد الفتاح عاشور، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧، ج٥، ص٥٣؛الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٨٣.

(٤) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد(ت ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧،ج١٠، ص١٦٧.

بين الرجلين، فأقدم صلاح الدين على تزويجه أخته ربيعة خاتون[١]. وفي موقعة حطين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) كان لمظفر الدين مهمة بارزة في تلك المعركة الخالدة؛ فقد تولى قيادة جيوش الموصل والجزيرة، وأبلى في المعركة بلاءً حسنًا[٢].

ظل مظفر الدين يحكم مدينة إربل نصف قرن من الزمان، ثم وافاه الأجل سنة(٦٣٠هـ/١٢٣٢م) في إربل، وكانت له وصية أن يدفن بمكة، فلما توجه الركب إليها بجثمانه ليدفن بها حالت أمور دون وصولهم، فرجعوا من الطريق ودفنوه بالكوفة[٣].

ومن صفاته التي ذكرها ابن واصل أنه كان: "حسن الأخلاق، كثير التواضع، حسن العقيدة، سالم الطوية، شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة، لا ينفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين، ومن عداهم لا يعطيه شيئا إلا تكلفا، وكان يميل إلى علم التاريخ، وعلى خاطره شيء يذاكر به"[٤].

وأفاض الذهبي في ذكر صفاته وأعماله ما نصه:" لم يكن شيء أحب إليه من الصدقة، وكان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها، ويكسو في السنة خلقا ويعطيهم الدينار والدينارين. وبنى أربع خوانك للزمنى(المرضى بالجذام) والعميان، وملأها بهم، وكان يأتيهم بنفسه كل خميس واثنين، ويدخل إلى كل واحد في بيته، ويسأله عن حاله، ويتفقده بشيء، وينتقل إلى الآخر حتى يدور على جميعهم، وهو يباسطهم ويمزح معهم. وبنى دارا للنساء الأرامل، ودارا للضعفاء الأيتام، ودارا للملاقيط رتب بها جماعة من المراضع. وكان يدخل البيمارستان. ويقف على كل مريض ويسأله عن حاله. وكان له دار مضيف يدخل إليها كل قادم من فقير أو فقيه فيها الغداء والعشاء، وإذا عزم على السفر، أعطوه ما يليق به، فإنه كان لا يتعاطى المنكر، ولا يمكن من إدخاله البلد.. وكان يبعث أمناءه في العام مرتين بمبلغ يفتك به الأسرى،

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٤٩؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٤٠٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٨٣.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٤٠٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٨٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٦١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٨٣.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٦١.

فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئا. ويقيم في كل سنة سبيلا للحج، ويبعث في العام بخمسة آلاف دينار للمجاورين"[١]. وهو أول من أجرى الماء إلى عرفات وعمل آثارا بالحجاز وبنى له هناك تربة[٢].

شهد عهد مظفر الدين حركة ثقافية، لا يمكن أن نقول إنها كانت حركة واسعة، ولكنها سرت إلى مسامع جيرانه من البلاد المجاورة فأثارت إعجابهم، فضلا عن سيرة مظفر الدين نفسه ومحبته لأهل العلم، فقد "كان مددا للعلماء والفقراء وطلبة الحديث وغيرهم"[٣]، وقد ذكر أنه لما اتفق مظفر الدين مع علاء الدين قراسنقر صاحب مراغة[٤] للاستيلاء على ديار أبى بكر بن البهلوان، أن أيتغمش مملوك أبي بكر، عاتب مظفر الدين في الرسالة التي بعثها إليه، وقال له فيها:" إننا كنا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم والخير وتحسن اليهم، فكنا نعتقد فيك الخير والدين"[٥]، وهذا دليل على ما كان يتمتع به مظفر الدين من سمعة طيبة، الأمر الذي دفع كثيرا من الناس إلى قصد إربل والإقامة بها إقامة مؤقتة أو دائمة[٦].

وكان اهتمام مظفر الدين "منصبا على العلوم الدينية، كالفقه والحديث، فقد أثرت ثقافته الدينية على حياته الخاصة والعامة، فقد كان يعيش عيشة بسيطة ليس فيها من مظاهر الملك شيئا، بل كانت حياته أقرب إلى حياة المتصوفة منها إلى حياة أمير وحاكم، حتى ذاع صيته في البلاد المجاورة له، فكان موضع احترام وتقدير جيرانه"[٧]، كما كان مقصد العلماء، يرحب بكل وافد عليه منهم، ويلازمه ويبره بالأموال[٨]. وكان لفرط حبه للصالحين والصالحات، أنه كان يحب أن يشركهم في كل طعام يستطيبه، بل

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٤٠٣.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٨٣.

(٣) ابن نقطة، أبو بكر محمد بن عبد الغني (ت ٦٢٩ هـ): تكملة الإكمال، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤١٨، ج٦، ص٢٧٣.

(٤) تقع غربي تبريز بينهما سبعة عشر فرسخا، وهي نزهة جدا وهي بلدة مشهورة عظيمة تعد أعظم وأشهر بلاد أذربيجان. ينظر: ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله(ت ٦٢٦هـ):معجم البلدان، ط٢،دار صادر، بيروت، ١٩٩٥،ج٥، ص٩٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٣٤.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٦١.

(٧) عبد القادر أحمد طليمات: مظفر الدين كوكبوري، المؤسسة المصرية العامة،١٩٦٣، ص٦٣.

(٨) ينظر: تاريخ إربل، ج١، ص١٢٦،١٣٨،١٤٤.

إذا أكل من زبدية منه لقمة طيبة قال، لبعض الجاندارية[١]: "احمل هذه إلى الشيخ فلان أو فلانة ممن هم عنده مشهورون بالصلاح، وكذلك كان يعمل في الحلوى والفاكهة وغير ذلك من المطاعم والمشارب والكساء"[٢].

ومن صور تبجيله للعلماء أنه كان يشترك مع الناس بكل بساطة ودون تكلف في مراسيم الدفن فعند وفاة العالم أبو العباس الزرزاري(ت٥٩١هـ/١١٩٥م) الذي كان إماما في علم القرآن، نزل أبو سعيد كوكبورى إلى قبره وألحده[٣]، وكذلك عند وفاة الشيخ المبارك بن ظاهر بن المبارك الخزاعي(ت٦٠٠هـ/١٢٠٤م) البغدادي المقرئ، إمام الزهاد ورئيس العباد، جمع الدين والورع والنسك والعفة واللطف والعقل، إذ كان منقطعا إلى تعليم القرآن، فذكر ابن المستوفي:"ونزل إلى قبره وألحده، ولم يخرج من قبره حتى واراه، الفقير إلى الله- تعالى- أبو سعيد كوكبوري"[٤]، وكذلك عند وفاة الشيخ أبو محمد أميري بن بختيار(ت٦١٤هـ/١٢١٨م) الذي كان فقيه عالم زاهد ورع كامل، ألحده أبو سعيد كوكبوري ونزل إلى قبره[٥].

وقد سار مظفر الدين على سيرة من سبقه في إنشاء المدارس، فأنشأ مدرسة باسمه لتدريس الفقهين الحنفي والشافعي، وكان يأتيها كل وقت، ويعمل بها سماطا[٦] ثم يعمل سماعا، فلم تكن له لذة سوى السماع السماع وكان يدرس فيها أيضا الحديث والنحو، فنالت من الشهرة ما فاقت به مدارس اربل كلها بسبب اهتمام مظفر الدين بها وشهرة مدرسيها وشيوخها[٧]. وقد تخرج على مدرسة مظفر الدين عدد كبير من أبناء أربل الأولى فيها ، ثم رحلوا إلى العواصم حصلوا علومهم الإسلامية الكبرى يغترفون من ينابيعها

(١) لفظ فارسي الأصل شاع في العصر المملوكي، وتعني فئة من المماليك، تتبع السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية، ويتألف لفظ الجاندرية من: جان ومعناه سلاح بالفارسية، ودار بمعنى ممسك أي ممسك السلاح. ينظر: محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠، ص٥١.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٦١.

(٣) تاريخ إربل، ج١، ص٤٠.

(٤) تاريخ إربل، ج١، ص٤٦.

(٥) تاريخ إربل، ج١، ص٥٣.

(٦) ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الأكلين، ويطلق أحياناً على المائدة السلطانية، وكانت تُمد طرفي النهار النهار من كل يوم أسمطة جليلة لعامة الأمراء. ينظر: دهمان: معجم المصطلحات، ص٩٢.

(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٤٠٣.

العلمية حتى وصلوا إلى أكبر المراتب العلمية والأدبية، نذكر منهم المفسر والفقيه أبو العباس الخضر بن نصر الإربلي(ت٦١٩هـ/١٢٢٣م)، الفقيه الشافعي، تفنن في العلوم، مع الزهد والورع، وهو أول من درّس بإربل، وله تصانيف حسان في التفسير والفقه، وله كتاب ذكر فيه ستا وعشرين خطبة للنّبيّ صلى الله عليه وسلم كلها مسندة، وانتفع به خلق كثير(١)، والفقيه أبو القاسم نصر بن عقيل بن نصر الأربلي(ت٦١٩هـ/١٢٢٣م) (٢). والمفتي الكمال سلّار بن الحسن بن عمر بن سعيد الإربلي الشّافعي(ت٦٧٠هـ/١٢٧٢م)، وصف " مفتي الشّام ومفيده، وكان عليه مدار الفتوى بالشّام في وقته"(٣). ومن القراء أبو الحسن على بن عبد العزيز الأربلي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، ومن المؤرخين ابن خلّكان، هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان البرمكي الإربلي ولد في إربل، وذلك في سنة ثمان وستمائة، ونال علومه بها، ودخل الديار المصرية وسكنها، وناب في القضاء، ثم دخل الشام وولي القضاء في ذي الحجة سنة تسع وخمسين منفردا بالأمر، فأضيف إليه مع القضاء نظر الأوقاف، والجامع الأموي، والمارستان، والتدريس، وصف بعدة أوصاف منها" قد جمع حسن الصورة، وفصاحة النطق، وغزارة الفضل، وثبات الجأش، ونزاهة النفس، كان إماما فاضلا، بارعا، متقنا، عارفا بالمذهب، حسن الفتاوى، جيد القريحة، بصيرا بالعربية، علّامة في الأدب والشعر وأيام الناس، كريما جوادا"(٤).

وكان أحب علوم الشريعة إلى مظفر الدين هو الحديث النبوي الشريف، ولذلك كان يكثر من مجالسة المحدثين والاستماع ليهم، وقد سمع الحديث من المحدث حنبل بن عبد الله الرصافي(ت٦٠٤هـ/١٢٠٨م) وغيره، وحدث، وسمع منه جماعة(٥)، وأنشأ دار للحديث بإربل سنة(٥٩٤هـ/١١٩٨م)، وعين الشيخ أبو محمد بدل بن أبي المعمر(ت٦٣٦هـ/١٢٣٩م) عليها وهو شيخ دين فاضل مشهور في علم الحديث، سمع

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٥٢.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٥٣.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٥٧٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج١، ص٥٨.

(٥) ابن نقطة: تكملة الإكمال، ج٦، ص٣٧٤.

عليه الحديث بها[١]. وبنى للصوفية خانقاتين، فيهما خلق كثير، وجعل لهما أوقاف كثيرة، وكان ينزل إليهم ويعمل عندهم السماعات[٢].

وفي سنة(٦٠٢هـ/١٢٠٦م) عمل كوكبوري على إحضار مشايخ محدثين من بغداد يسمع عليهم إلى دار الحديث هذه، وكان أبرزهم ابن طبرزد(ت ٦٠٧ هـ/١٢٠٦م) فسمع على ابن طبرزد خلق كثير وجم غفير[٣]، وقد ورد إربل من أقصى بلاد المغرب الشيخ المحدث عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد المينارى وسكن دار الحديث بها[٤].

وكان مظفر الدين يرتاد المجالس العلمية والأدبية التي كانت تعقد في قصور ودور المثقفين من علماء وفقهاء ومحدثين وأدباء، فيحضر مساجلاتهم ومناظراته فذكر ابن المستوفي أنه عندما ورد إربل الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الخضر المعروف بابن تيمية الحراني حاجا سنة(٦٠٤هـ/١٢٠٨م) وجلس بالديوان بالقلعة، واعظ يدرس في كل يوم التفسير حضر مجلسه" الفقير إلى الله تعالى أبو سعيد كوكبوري، وزوده إلى مكة المحروسة فأحسن زاده"[٥]. وكانت تلك المجالس يعقدها مظفر الدين لتغلب نشأته الدينية عليه، يقول ابن خلكان:" ان مظفر الدين كان شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة، لا ينفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين، يعطيه شيئا إلا تكلفا، وكذلك الشعراء لا يقول بهم ولا يعطيهم إلا إذا قصدوه، فما كان يضيع قصدهم ولا يخيب أمل من يطلب بره"[٦].

وقد تمتعت مدينة إربل بموقعها المتميز، وهي وكما وصفها ياقوت الحموي بقوله: "قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، في فضاء من الأرض واسع، ولقلعتها خندق عميق، وهي في طرف من المدينة، وسور المدينة ينقطع في نصفها، وهي على تل عال من التراب، وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية، وجامع للصلاة، وهي شبيهة بقلعة حلب، إلا أنها أكبر وأوسع رقعة، وهي بين الزابين، تعد من أعمال الموصل، وبينهما مسيرة يومين. وفي ربض هذه القلعة، مدينة كبيرة، عريضة طويلة، قام بعمارتها وبناء سورها،

(١) تاريخ إربل، ج١، ص١٤٤.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٤٠٣.
(٣) تاريخ إربل، ج١، ص١٥٩.
(٤) تاريخ إربل، ج١، ص٣١١.
(٥) تاريخ إربل، ج١، ص٩٦.
(٦) وفيات الأعيان، ج٤، ص١١٩.

وعمارة أسواقها وقيسارياتها، الأمير مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين كوجك علي، فأقام بها، وقامت، بمقامه بها، لها سوق وصار له هيبة، وقاوم الملوك ونابذهم بشهامته وكثرة تجربته حتى هابوه، فانحفظ بذلك أطرافه، وقصدها الغرباء، وقطنها كثير منهم، حتى صارت مصرا كبيرا من الأمصار"(١).

هذا الموقع أثر وبشكل كبير في جذب العلماء من بقاع الأرض المختلفة فقد ورد في كتاب ابن المستوفي تراجم لمختلف العلماء القادمين اليها من مختلف الجهات، الذين مروا على اربل في أثناء زيارتهم لبغداد او مصر والحجاز ومكثوا فيها مدة من الزمن، وساهموا في بلورة الحركة العلمية في هذه المدة، وقد ذكرهم ابن المستوفي بقوله:" أنا ذاكر في هذا الباب المنقطعين إلى الزهادة والموسومين بالعدالة والمعروفين بالرواية، ممن اشتهرت ديانته وعرفت صيانته وظهرت أمانته، موفيا كلا منهم حقه ومعطيه مستحقه، غير مائل إليه ولا متحامل عليه"(٢).

لقد وجد هؤلاء العلماء أرضا خصبة والعيش الكريم في إربل بعد نزولهم فيها ومحاباة وتكريم من سلطانها مظفر الدين، مما جعلهم يساهمون في جعل إربل محط أنظار المسلمين وطلبة العلم والمعرفة، ومركز إشعاع علمي ثقافي، حتى أصبحت مجمعا للعلماء من كافة بقاع العالم الإسلامي، واستوطنها هؤلاء العلماء، وعقدوا بها الحلقات والمناظرات وهو ما جعلها تتبوأ مكانة علمية مرموقة في العصر الوسيط.

وقد وردت اسمائهم في كتاب تاريخ إربل كوافدين اليها لتحصيل العلم فيها، فمن العلماء الذين قدموا إربل من بلاد الأندلس وأقاموا فيها إقامة مؤقتة ابن الشاطبي، وقد ولد بمدينة شاطبة من بلاد الأندلس ثم رحل منها الى مدينة حلب وولى مشيخة دار الحديث البهائية بها، ثم سار منها الى مصر فتولى دار الحديث الكاملية بها، ودخل مدينة اربل سنة(٦٢٦هـ/١٢٢٩م) وأقام بها مدة، قرأ في أثنائها على

(١) ينظر: معجم البلدان، ج١، ص١٣٨.

(٢) ينظر: تاريخ إربل، ج٢، ص٣٣.

المحدث أبي الخير بدل التبريزي، وصفه اليونيني قائلا :" إنه كان أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل، وكان مجبولا على كرم الأخلاق وترك التكلف ورقة الطبع ولين الجانب"(١).

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الزهري الأندلسي(ت٦١٧هـ/١٢٢١م)، من أهل إشبيلية، ورد إربل وسمع الشيخ أبا المظفر المبارك بن طاهر الخزاعي(ت٦٠٠هـ/١٢٠٤م) الذي كان مقيما في إربل من صغره وحدث بإربل والموصل(٢). ورحل الزهري في طلب الحديث إلى نشاوور وغيرها، وسمع شيوخ بغداد وكان أقام بالموصل مدة في طلب الحديث، وكان رجلًا فاضلًا، وصنف تصانيف في الأدب منها: كتاب "شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي"، وكتاب "شرح اليميني لأبي النصر العتبي"، وكتاب في البلاغة (٣). ومنهم ابن هلالة المغربي وهو أبو محمد عبد العزيز بن الحسين بن عبد العزيز بن هلالة المغربي الأندلسي ويعرف بابن هلالة(ت٦١٧هـ/١٢٢١م). ولد بمدينة طبيرة من الأندلس، ورحل في طلب الحديث الى نيسابور وخوارزم وغيرها، وسمع من مشايخها، وحصل جملة من أصولها، وعاد فورد إربل، وسمع على أبي سعيد كوكبوري مسند أهل البيت(٤). والشيخ أبو زكريا يحيى بن أحمد بن يوسف بن أحمد الحسني الأندلسي الغرناطي(ت٦١٩هـ/١٢٢٣م) ورد إربل وعقد بها مجالس الوعظ، وكان له من العامة قبول عظيم، كان يجيء الناس أكثر مجالسه ويتكففهم. وصله أبو سعيد كوكبوري بصلة، وأراد السفر فأمر العامة أن يطلبوا من السلطان أن يقيم عندهم، فأجابهم إلى ذلك(٥).

ووفد من بلاد الشام مدينة إربل جمع من العلماء في عهد مظفر الدين منهم الشيخ خالد النابلسي وهو خالد بن يوسف بن سعد بن الحسن بن المفرج بن بكار النابلسي المقدسي الشافعي(ت ٦٦٣ هـ/١٢٦٥م)، سكن بغداد ونزلها، وأقام بها سنين يسمع الحديث ويقرأه بالمسجد الجامع، وله اجازات من شيوخ بغداد

---

(١) أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦ هـ): ذيل مرآة الزمان، ط٢،دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢، ج٢، ص٣٠٤.

(٢) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي(ت ٤٦٣ هـ): تاريخ بغداد،تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧،ج١٥، ص٣٢٧.

(٣) تاريخ إربل، ج٢، ص٨٩؛ ابن الشعار: قلائد الجمان، ج٥، ص٩٨.

(٤) تاريخ إربل، ج٢، ص٢٢٣.

(٥) تاريخ إربل، ج٢، ص٣٢٦.

وغيرهم، ورد إربل في جمادى الآخرة من سنة(٦١٩هـ/١٢٢٣م)، وسكن رباط الجنينة، سمع بإربل على الشيخ أبي المعالي صاعد بن علي الواعظ، وعلى المحدثة راجية بنت عبد الله عتاقة(ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م)[١]. كان فيه سهولة أخلاق وممازحة، وكان مولعا بشراء الكتب وبيعها، والمغالاة في خطوط الأئمة بها، وكان مغاليا في مذهب أهل السنة[٢].

والشيخ أبو الفتوح عمر بن محمد بن منصور الدمشقي(ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م). ورد إربل في العشر الوسطى من شهر ربيع الآخر من سنة(٦٢٤هـ/١٢٢٥م) سمع بإربل الشيخ المحدث أبا المعالي صاعد بن علي الواعظ الواسطي، وأبا محمد بدل بن ابي المعمر الحافظ التبريزي، ثم رحل إلى بغداد وسمع بها[٣]. والشيخ نصر الله بن عبد المنعم التنوخي الدمشقي الحنفي(ت ٦٧٤ هـ/١٢٧٦م). ولد سنة(٦٠٦هـ/١٢١٠م) بدمشق ورد صحبة والده صغيرا، ثم ورد إربل في صفر من سنة(٦٢٧هـ/١٢٣٠م) لسماع الحديث[٤].والعالم أبو المعالي محمد بن وهب الدمشقي(ت٦٠٦هـ/١٢١٠م)، ورد إربل حاجا في شوال من سنة(٦٠٥هـ/١٢٠٩م) وحدث بها، وحضر للسماع عليه أبو سعيد كوكبوري بالدار التي أنشأها ووقفها على أصحاب الحديث، ووصله بآخرة الحج دنانير مصرية، كان ثقة صالحا، فقيها شافعيا، شيخا طويلا إلى الشقرة لونه[٥].

وكان لعلماء المشرق الإسلامي دورهم وأثرهم في بلورة الحركة العلمية الحديثية في مدينة إربل، فهذا العالم الجليل أبو محمد بن إسماعيل بن أبي نصر محمد بن معمر بن نصر التبريزي(ت٦٣٦هـ/١٢٣٩م)، كان شيخ دين فاضل مشهور في علم الحديث، سافر إلى دمشق في سنة(٥٨٥هـ/١١٩٠م)، واشتغل بالحديث وسماعه، ورحل إلى أصبهان ونيسابور وأخذ عن رجالهما. وسمع الكثير وكتب الكثير، وورد إربل فهو مقيم بها، وله من أبي سعيد كوكبوري بن علي إيجاب يصله

---

(١) المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي(ت ٦٥٦ هـ): التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف،ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١، ج٣، ص١٤٧.

(٢) تاريخ إربل، ج٢، ص٣٢٧.

(٣) تاريخ إربل، ج٢، ص٤٠٩.

(٤) تاريخ إربل، ج٢، ص٤٥٤.

(٥) تاريخ إربل، ج٢، ص١٦٤.

في أوقاته، ثم ولاه دار الحديث التي أنشأها بإربل، فهو شيخها، سمع عليه الحديث بها، صنف عدة مصنفات، واختصر كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، وله كتاب تاريخ صغير، وجمع كتابا في أحوال النبي(ﷺ) في ستين مجلدا[١].

والعالم أبو الفوارس المشرف القزويني(ت ٦٠٩ هـ/١٢١٣م)، ورد إربل في سنة(٥٩٤هـ/١١٩٦م)، ونصب شيخا لدار الحديث المظفرية بإربل، وهو أول من أقام بها.وحضر خطبته لما فتحت أبو سعيد كوكبوري، والعلماء بإربل وجماعة كثيرون، وكان يعرض لولايتها جماعة من علماء إربل، فما أعطوها. وأقام بها يسمع الحديث على من وردها[٢].

والعالم أبو المكارم محمد بن عابد الكرماني(ت ٦١٦ هـ/١٢٢٠م) ورد إربل سنة(٦١٤هـ/١٢١٦م)، ثم وردها في جمادى الآخرة من سنة(٦١٦هـ/١٢٢٠م) ،واجتمع به ابن المستوفي في سابع رجب من السنة، وكان الشيخ أبو نصر عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي كتب إلى أبي سعيد كوكبوري يثني عليه بقوله: "شهاب الدين الكرماني متفنن في العلوم، يعرف المذهب والخلاف والحديث والتفسير والنحو واللغة. ومع ذلك هو ذو دين، وله النظم والنثر والترسل، ويصلح للتدريس وللقضاء، وأن يبعث رسولا، غير أن بعض الناس تقبله بعض الطباع، وتأباه بعض الطباع، فإن قبله الطبع بشيء من ذلك يقدر أن يقيم، إلا فلينعم عليه بعوده إلى بلاده". فأحبب ابن المستوفي الاجتماع به لهذه الأوصاف المنسوبة إليه، فوجد ثناءه عليه أكثر مما نسبه إليه. وقال ابن المستوفي:"وناولني ورقة يمدح بها أبا سعيد كوكبوري بن علي، وقرأتها عليه تهنئة بشهر رجب المذكور. وأولها "حسبي الله كافيا ومعينا":

رجب أتى في حرمة وجمال ... متبخترا في مشية المختال

باب المليك مظفر الدين الذي ... سبق الملوك بجوده الهطال[٣]

وكان للشيخ المحدث السهروردي دوره وأثره في الحياة العلمية في إربل، وهو أبو نصر عمر بن محمد السهروردي(ت٦٣٢هـ/١٢٣٥م) الواعظ الصوفي ولد بسهرورد[١] ونشأ بها، وقدم بغداد فاستوطنها

(١) تاريخ إربل، ج٢، ص١٤٤.
(٢) تاريخ إربل، ج٢، ص٣٢٨.
(٣) تاريخ إربل،ج٢، ص١٨٨.

وعقد بها مجالس الوعظ، صحب عمه أبا النجيب عبد القاهر بن عبد الله السهروردي(ت٥٦٣هـ/١٢٦٨م)، وعنه أخذ طريقتي التصوف والوعظ، وسمع ببغداد الحديث من عمه المذكور، ومن كثير من المحدثين، ورد إربل غير مرة رسولا من قبل الديوان العزيز، ونفذ منه إلى جهات عدة من البلاد رسولا، وحدث في أسفاره ، سمع عليه بإربل جماعة من أهلها والواردين عليها. ووعظ بإربل وحضر مجلسه أبو سعيد كوكبوري، ووجد من وعظه وجدا شديدا، وله قبول في البلاد لمكان رسالته، له تصانيف في علوم المتصوفة ووصف أحوالهم ومقاماتهم، منها كتاب "عوارف المعارف"، وكتاب "حلية الناسك" وهو ألطف منه. كان مقدما ببغداد، تولى الربط بها، ثم عزل عن الرباط، وبقي مدة خاملا ببغداد إلى أن كانت سنة إحدى عشرة وستمائة؛ فأعيد إلى الرباط، وعاد الإحسان إليه(٢)، وصفه ابن الخطيب بقوله:" كان تام المروة كبير النفس، ليس للمال عنده قدر ولو حصل له ألوف كثيرة من المال فأنفقها ولم يدخر منها شيئا، ومات ولم يخلف كفنا ولا أشياء من أسباب الدنيا، وكان مليح الخلق، متواضعا، كامل الأوصاف الجميلة والأخلاق الشريفة، وكان صدوقا نبيلا"(٣).

وكان لعلماء بغداد دورهم في أزدهار الحركة العلمية في إربل ومثال ذلك العالم أبو المظفر الخزاعي(ت٦٠٠هـ/١٢٠٤م)، وكان مقيما بإربل، ذكره ابن المستوفي قائلا:"هو شيخنا الإمام أبو المظفر المبارك بن ظاهر بن المبارك الخزاعي البغدادي المقرئ، إمام الزهاد ورئيس العباد، جمع الدين والورع والنسك والعفة واللطف والعقل، كان منقطعا إلى تعليم القرآن، لم ير ضاحكا إلا متبسما، كان شافعيا كثير العصبية لمذهبه"(٤)، كانت له علاقة متينة بمظفر الدين فكان يلزم نفسه بقضاء حوائج الناس ويرفعها إلى أبي سعيد كوكبوري فيوقع عليها بقضائها(٥). توفي الشيخ أبو المظفر يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة من سنة ستمائة، ونزل إلى قبره وألحده، ولم يخرج من قبره حتى واراه، أبو سعيد كوكبوري(٦).

والعالم المحدث الجليل ابن طبرزد(ت ٦٠٧ هـ/١٢١١م)، هو أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن أحمد بن حسان بن أبي حفص بن أبي بكر المؤدب يعرف بابن طبرزد البغدادي الدار قزي، كان يسكن

---

(١) بلدة قريبة من زنجان بالجبال، ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٨٩.

(٢) تاريخ إربل،ج٢، ص١٩٢.

(٣) تاريخ بغداد، ج٢٠، ص١١٢.

(٤) تاريخ إربل، ج٢، ص٤١.

(٥) تاريخ إربل، ج٢، ص٤٢.

(٦) تاريخ إربل، ج٢، ص٤٦.

دار القز، ويعمله ببغداد، ويكنى أبا البقاء. وطبرزد: بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الزاي وبعدها ذال معجمة، وهو اسم لنوع من السكر(١). ويذكر ابن المستوفي سبب وروده إربل:"أن أبا سعيد كوكبوري، لما بنى دار الحديث لم يكن بإربل من يسمع بها، فمرت على ذلك مدة. فأنهيت هذا الحال إليه، فقال: كيف الطريق إلى ذلك؟ فقلت: إحضار مشايخ من بغداد عندهم حديث يسمع عليهم، فكتب كتابا إلى الديوان العزيز- أجله الله- يطلبه، وأنفذ له نفقة تامة"، فوصلا في سنة اثنين وستمائة، فنزلا بدار الحديث بإربل. فسمع على ابن طبرزد خلق كثير وجم غفير، وأقام مدة أشهر"(٢). قال عنه ابن خلكان: "كان عالي الإسناد في سماع الحديث، طاف البلاد وأفاد أهلها وألحق الأصاغر بالأكابر وطبق الأرض بالسماعات والإجازات، وامتدت له الحياة فخلا له العصر، وكان فيه صلاح وخير"(٣). والحافظ أبو يعقوب يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله البغدادي(ت٥٨٥ هـ/١١٩٠م). وهو محدث مشهور، أقام ببلاد خراسان وكرمان وبلاد الجبال والشام والحجاز وبغداد مدة طويلة، وسمع الأحاديث بها. وحدث بالعراق والحجاز وبلاد الجزيرة، ورد إربل وحدث بها، وسمع عليه الأئمة العلماء من أهلها، وكان يدعى الحافظ(٤).

والمؤرخ ابن نقطه(ت ٦٢٩ هـ/١٢٣٢م)،وهو أبو بكر محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع بن أبي نصر البغدادي يعرف بابن نقطه، من طلبة الحديث المشهورين به، المكثرين من سماعه وكتابته، والراحلين في طلبه، ورد إربل وسمع الحديث من علمائها، وكان قد وقف من مسموعاته ببغداد على أجزاء، فسمعها عليهم بإربل. وكان ذا تصانيف، وحافظا متقنا. ورد إربل في شهر رمضان من سنة(٦٠٩هـ/١٢١٢م). وله كتابا في مختلف الأسماء ومؤتلفها يدخل في مجلدات، وغيره من المؤلفات(٥).

المؤلفات(٥).

ومن الموصل أبو الثناء محمود اللبان(ت ٦٠٥ هـ/١٢٠٩م) وهو شيخ صالح قرأ القرآن وسمع الحديث، ولقي من رجاله بالموصل جماعة. وكان له دكان بالموصل في الجية يبيع بها اللبن وما يعمل منه

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٣.
(٢) تاريخ إربل، ج٢، ص١٥٩.
(٣) وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٣.
(٤) تاريخ إربل، ج٢، ص١٢٣.
(٥) تاريخ إربل، ج٢، ص٢٤٩.

ومعه فاشتهر، ورد إربل لرسم كان له على الفقير إلى الله أبي سعيد كوكبوري. وسمع عليه الحديث، وكان شيخا خيرا أديبا[١]. ومن واسط أبو الفرج محمد الواسطي(ت ٦١٨ هـ/١٢٢٢م)، ورد إربل قديما ثم غاب عنها زمانا وأتاها في زمن أبي سعيد كوكبوري بن علي، فهو يتردد إليها في كل سنة رغبة في الصدقة عليه[٢].

هذه الصورة من ملتقى العلماء في مدينة إربل على عهد مظفر الدين كوكبوري، تعكس صورة لنهضة علمية وثقافية كبيرة شهدتها المدينة، وجعلت منها منارة للعلم في المشرق الإسلامي.

الخاتمة

كان ابن المستوفي مؤرخا ووزيرا في إربل في فترة حكم السلطان مظفر الدين كوكبوري، ويمثل كتابه المعروف (بتاريخ إربل)، مصدرا تاريخيا مهما، بل هو نافذة على الحياة الاجتماعية والثقافية والعمرانية لمدينة إربل في العصور الوسطى، ويضم الكتاب تراجم تفصيلية لعلماء، وأدباء، وفقهاء بارزين من إربل وخارجها، مما يبرز التنوع الثقافي والعلمي للمدينة.

إذ يوفر الكتاب مادة غنية لتحليل التفاعل الثقافي والاجتماعي في مدينة أربيل في حكم مظفر الدين كوكبوري الذي حكم المدينة نصف قرن من الزمان، خدم فيه إمارته وشعبه خدمات جليلة، وكان في أثناء حكمه مثال الحاكم المصلح المستنير الذي كرس حياته وبذل جهده لإسعاد الشعب الذي رضى به حاكما، ويبدو من كتاب تاريخ أربل لابن المستوفي أن حقبة حكم مظفر الدين كوكبري من الحقب المهمة في تاريخ قلعة أربل، إذ شهدت استقرارا سياسيا ترك آثاره على جميع جوانب الحياة في القلعة، ولاسيما الجانب الثقافي والعلمي، في الوقت الذي فقدت بغداد بريقها العلمي بسبب الاضطراب السياسي والتسلط الأجنبي.

فحول المدينة إلى وحدة سياسية قائمة بنفسها، مدينة عامرة زاخرة بالعمران والزراعة والتجارة، إذ اهتم بمجتمعه اهتماما بالغا حد الروعة، وتنبه إلى ما فيه من أمراض صحية واجتماعية، فأقبل على علاجها إقبال الرجل المتسع الأفق، فأنشأ مستشفى للمرضى، وملاجيء للعميان والأرامل واليتامى الصغار واللقطاء، وخصص لهذه المنشآت الانسانية الأموال الضخمة، كذلك اهتم بنشر التعليم فبنى مدرسة،

(١) تاريخ إربل، ج٢، ص١٢٦.

(٢) تاريخ إربل، ج٢، ص١٣٨.

واحتضن المدرسين والعلماء وأكرمهم وأبرهم، فلازموه وأضفوا على مجتمعه مسحة جميلة من الثقافة الدينية،

فنالت إربل اعجاب كل من رآها في عصره، وجذبت إليها كثيرا من السكان المجاورين لها ولا سيما العلماء من المشرق والمغرب فأقاموا بها، أو قضوا بها وقتا طويلا، وساهموا في بلورة الحركة العلمية بها.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر الأولية

***ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد(ت ٦٣٠هـ):**

١- الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧.

***ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد(ت ٦٨١هـ):**

٢- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،١٩٧١، ج٤، ص١٤٧.

***الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي(ت ٤٦٣ هـ):**

٣-تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

***الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد(ت ٧٤٨هـ):**

٤-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المحقق: عمر عبد السلام التدمري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣، ج٤٦، ص٣٥١.

٥-سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.

***الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت ٧٦٤هـ):**

٦-الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ٢٠٠٠.

***ابن الشعار، أبو البركات المبارك بن الشعار(ت ٦٥٤ هـ):**

٧-قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المعروف بـ «عقود الجمان في شعراء هذا الزمان»، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت ،٢٠٠٥.

***ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد(ت ١٠٨٩ هـ):**

٨-شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ١٩٨٦، ج٧، ص٣٢٦.

***أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل(ت ٧٣٢هـ):**

٩-المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصر.

***ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير(ت٧٧٤هـ):**

١٠-البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، دار هجر،١٤٢٠ هـ.

***ابن المستوفي، أبو البركات شرف الدين مبارك بن أحمد(ت ٦٣٧ هـ):**

١١-تاريخ إربل، تحقيق سامي بن سيد خماس الصقار، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٠.

***المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي(ت ٦٥٦ هـ):**

١٢-التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١.

***ابن نقطة، أبو بكر محمد بن عبد الغني(ت ٦٢٩ هـ):**

١٣-تكملة الإكمال، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤١٨.

***ابن واصل، محمَّد بن سالم(ت ٦٩٧ هـ):**

١٤-مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع وسعيد عبد الفتاح عاشور، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧.

***ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله(ت ٦٢٦هـ):**

١٥-معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ج٥، ص٩٣.

***اليونيني، أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني(ت ٧٢٦ هـ):**

١٦-ذيل مرآة الزمان، ط٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م.

ثانيا: المراجع الثانوية

***عباس إقبال:**

١-الوزارة في عهد السلاجقة، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، مكتبة المهتدين، الكويت، ١٩٨٤.

***عبد القادر أحمد طليمات:**

٢-مظفر الدين كوكبوري، المؤسسة المصرية العامة،١٩٦٣.

***محمد أحمد دهمان:**

٣-معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠.

List of Sources and References

First: Primary Sources

*** Ibn al-Athir, Abu al-Hasan Ali ibn Muhammad (d. 630 AH):**

1- *Al-Kamil fi al-Tarikh (The Complete History)*, edited by Omar Abd al-Salam Tadmuri, Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, 1997.

*** Ibn Khallikan, Abu al-Abbas Shams al-Din Ahmad (d. 681 AH):**

2- *Wafayat al-A'yan wa Anba' Abna' al-Zaman (Deaths of Eminent Men and the History of the Sons of the Age)*, edited by Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, 1971, Vol. 4, p. 147.

*** Al-Khatib al-Baghdadi, Abu Bakr Ahmad ibn Ali (d. 463 AH):**

3- *Tarikh Baghdad (History of Baghdad)*, edited by Mustafa Abd al-Qadir Ata, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, 1997.

*** Al-Dhahabi, Abu Abd Allah Muhammad ibn Ahmad (d. 748 AH):**

4- *Tarikh al-Islam wa Wafayat al-Mashahir wa al-A'lam (History of Islam and Deaths of Notables and Celebrities)*, edited by Omar Abd al-Salam Tadmuri, 2nd ed., Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, 1993, Vol. 46, p. 351.

5- *Siyar A'lam al-Nubala' (Lives of Noble Figures)*, edited by Shuayb al-Arna'ut, 3rd ed., Al-Risalah Foundation, 1985.

*** Al-Safadi, Salah al-Din Khalil ibn Aybak (d. 764 AH):**

6- *Al-Wafi bi al-Wafayat (The Complete Obituaries)*, edited by Ahmad al-Arna'ut and Turki Mustafa, Dar Ihya' al-Turath, Beirut, 2000.

*** Ibn al-Shi'ar, Abu al-Barakat al-Mubarak ibn al-Shi'ar (d. 654 AH):**

7- *Qala'id al-Juman fi Fara'id Shu'ara' hadha al-Zaman*, also known as *'Uqud*

al-Juman fi Shu'ara' hadha al-Zaman, edited by Kamil Salman al-Juburi, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, 2005.

* **Ibn al-Imad al-Hanbali, Abd al-Hayy ibn Ahmad (d. 1089 AH):**

8- *Shadharat al-Dhahab fi Akhbar man Dhahab (Golden Nuggets in the News of Those Who Passed Away)*, edited by Mahmoud al-Arna'ut, Dar Ibn Kathir, Damascus–Beirut, 1986, Vol. 7, p. 326.

* **Abu al-Fida', Imad al-Din Isma'il (d. 732 AH):**

9- *Al-Mukhtasar fi Akhbar al-Bashar (Abridged History of Mankind)*, Al-Husayniyya Press, Egypt.

* **Ibn Kathir, Isma'il ibn Umar ibn Kathir (d. 774 AH):**

10- *Al-Bidaya wa al-Nihaya (The Beginning and the End)*, edited by Abdullah ibn Abd al-Muhsin, Dar Hajr, 1420 AH.

* **Ibn al-Mustawfi, Abu al-Barakat Sharaf al-Din Mubarak ibn Ahmad (d. 637 AH):**

11- *Tarikh Irbil (History of Erbil)*, edited by Sami ibn Sayyid Khammās al-Saqqar, Dar al-Rashid, Iraq, 1980.

* **Al-Mundhiri, Abd al-Azim ibn Abd al-Qawi (d. 656 AH):**

12- *Al-Takmila li Wafayat al-Naqala (The Supplement to the Deaths of Transmitters)*, edited by Bashar Awwad Ma'ruf, 2nd ed., Al-Risalah Foundation, 1981.

* **Ibn Nuqtah, Abu Bakr Muhammad ibn Abd al-Ghani (d. 629 AH):**

13- *Takmilat al-Ikmal (The Supplement to Al-Ikmal)*, edited by Abd al-Qayyum Abd Rabb al-Nabi, Umm al-Qura University, Saudi Arabia, 1418 AH.

* **Ibn Wasil, Muhammad ibn Salim (d. 697 AH):**

14- *Mufarrij al-Kurub fi Akhbar Bani Ayyub (The Reliever of Sorrows in the History of the Ayyubids)*, edited by Hasanayn Muhammad Rabi' and Sa'id Abd al-Fattah Ashur, Al-Amiriya Press, Cairo, 1957.

* **Yaqut al-Hamawi, Abu Abd Allah Yaqut ibn Abd Allah (d. 626 AH):**

15- *Mu'jam al-Buldan (Dictionary of Countries)*, 2nd ed., Dar Sader, Beirut, 1995, Vol. 5, p. 93.

* **Al-Yunini, Abu al-Fath Musa ibn Muhammad al-Yunini (d. 726 AH):**

16- *Dhayl Mir'at al-Zaman (Appendix to Mirror of Time)*, 2nd ed., Dar al-Kitab al-Islami, Cairo, 1992.

Secondary References

* **Abbas Iqbal:**

1- *The Vizierate in the Seljuk Era*, translated by Ahmad Kamal al-Din Hilmi, Maktabat al-Muhtadin, Kuwait, 1984.

* **Abd al-Qadir Ahmad Tulaymat:**

2- *Muzaffar al-Din Kokburi*, Egyptian General Authority, 1963.

* **Muhammad Ahmad Dahman:**

3- *Dictionary of Historical Terms in the Mamluk Era*, Dar al-Fikr, Beirut, 1990.